



المؤسسات الطرقية بين التوصيف والتوظيف Tariqa Institutions between characterization and exploitation

نجا الطاهر قرفال (*)

جامعة قابس ، تونس

Guerfeel Najet Tahar
guerfeell@hotmailfr

تاريخ الإيداع: 2022/11/02 تاريخ القبول: 2022/12/02 تاريخ النشر: 2024/01/31

الملخص:

لم تغب المؤسسة الطرقية في الجزائر وغيرها من بلاد الإسلام عن المشهد الحضاري. فقد سجلت حضورها اللافت، تنظيميًا وعلميًا وسياسيًا. ولعلّه من المهم الكشف عنها من خلال ما تخلّد في ذاكرة المستعربين الذين كتبوا حولها، مثل أكتاف ديبون (1862-1921) (Depont, Octave) وكزافيي كوبلاني (1866) (Coppolani, Xavier) (1905)، في كتابهما الموسوم بالطرق الدينية الإسلامية (Les confréries religieuses musulmanes)، الذي يعدّ مرجعاً أساسياً في بابها. لقد حاول الكاتبان ديبون وكوبلاني الإلمام بما تزعم الطرق التفرد به في مجالات مختلفة تنظيراً وإجراء، لكنهما لم يأتيا على جملة من الخصائص المانزة لا سيّما المقامات. وقد قدّم هذا الكتاب مادّة علميّة غزيرة غير أنّه ظلّ محكوماً بالإيديولوجيا الاستعماريّة التي لا ترى في الآخر سوى خصم لدود عليها إزاحته أو على الأقلّ عولته. لم يتمكّن هذان المستعربان من التزام مصطلحات بعينها فكثيراً ما وقعا في الخلط لا سيّما بين الزاوية والطريقة والتصوّف.

الكلمات الدالة:

الجزائر؛ الطرقية؛ الثقافة؛ المستعرب؛ كوبلاني؛ ديبون.

(*) المؤلف المرسل: نجا الطاهر قرفال: guerfeell@hotmailfr



Abstract:

The Tariqa institution in Algeria and other Islamic countries was not absent from the civilized scene. It recorded its remarkable presence, organizationally, scientifically and politically during the 18th and 19th centuries. Arabists such as Depont, Octave (1862-1921) and Coppolani, Xavier (1866-1905) paid attention to it in their book entitled *Les confréries religieuses musulmanes*, which is an essential reference in its chapter. The problem of the research can be reduced to the following question: To what extent can the tariqa institution have an effective role in society in terms of organisation, science and politics, through this Arabist achievement?

Key Words:

Algeria; Tariqa; culture; Arabist; Coppolani; Depont.

1. مقدمة:

للمؤسسة الطرقية مساهمتها الفعالة وأثرها الحقيقي في تأثيث المشهد الحضاري، في الجزائر وغيرها من بلاد الإسلام عن. وقد تجلّى ذلك في مستويات ثلاثة، على الأقل: المستوى التنظيمي والمستوى العلمي والمستوى السياسي. ولعلّه من المهمّ الكشف عن هذه المستويات الثلاثة التي، من المؤكّد، أنّها أثّرت في الانتظام الاجتماعي الجزائري، فكراً وثقافة، لا سيّما خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولعلّه من المهمّ، كذلك، كشف صورة هذه الطرق وهي تتحرّك في الزمان والمكان، لا من خلال عيون جزائريّة ولا مغاربيّة وإنّما من خلال ما تخلّد في ذاكرة المستعربين الذين تعرّفوا على هذه الطرق عن كتب وربّما كان لهم معها تعاطٍ ما، جعلهم يهتمّون بالكتابة حولها والتعريف بأنواعها وأنظمتها السلوكيّة والماليّة ومواقفها السياسيّة والوطنيّة ومشاريعها المعرفيّة والعلميّة. ومن الذين صنّفوا في هذا الغرض مؤلّفان متشاركان، أكتاف ديبون (Depont, Octave) (1862-1921) و كزافيي كوبلاني (Coppolani, Xavier) (1866-1905)، في كتابهما الموسوم بالطرق الدينيّة الإسلاميّة، الذي يعدّ مرجعاً أساسيّاً في بابهِ. تسعى ورقة البحث هذه إلى التحقّق من الإضافة التي يمكن أن يكون هذا النتاج الاستعراي قد وقّرها في شأن المؤسسات الطرقية بالجزائر خلال الحقبة المقصودة بالدرس.

أمّا خطة البحث فتنهض، بعد المقدّمة المبيّنة لأهميّة الموضوع والأهداف المرجوة من البحث فيه والخطة المعتمدة فيه، والخاتمة المبينة على عناصر ثلاثة: خلاصات فاستنتاجات



فتوصيات، على ثلاثة أقسام: يتناول الأول المقوم التنظيمي للمؤسسة الطرقية، ويستعرض الثاني المقوم العلمي فيها ويبحث الثالث في المقوم السياسي. وأما الخيط الناظم فيتمثل في الوجه المعرفي الفكري الثقافي الواسع للمقومات الثلاثة.

وأما إشكالية البحث فيمكن اختزالها في السؤال التالي: إلى أي حد يمكن أن تكون المؤسسة الطرقية ذات دور فعال في المجتمع تنظيميا وعلميا وسياسة، من خلال هذا المنجز الاستعرابي؟

2. المقوم التنظيمي للمؤسسة الطرقية.

يعد الإطار التنظيمي الذي طُرحت فيه مسألة الطرق الصوفية في الإسلام إطارا مؤسساتيا يشمل رؤية الإسلام للانتظام الاجتماعي، في وجه من وجوهه، وفق هرمية مخصصة يكاد يختص كل عنصر فيها بمنزلة معينة ويتحرك في فضاء ذي سمات مائزّة، يسى الزاوية. وهو فضاء جامع بين المشغلين الفكري والثقافي المتجليين في الخاصية التأسيسية والبنية الهرمية والدور الوظيفي الذي تهض به من خلال ما هو موكول للكّل منتسب إليها.

المؤسسة:

1.2

تمثل الزاوية في الجزائر خلال تاريخها الحديث خاصّة، وفي بلاد الإسلام عامّة، إحدى أبرز المنشآت المنسوبة إلى التوجّه الديني تأصيلا، والمحتضنة للشأن الثقافي تفرّعا.

1.1.2. التسمية: وهي من حيث التسمية متنوّعة بحسب اختلاف المكان. يقول ديبون

وكوبلاني: "كلمة زاوية، تكيّة بالتركية، خوانق في مصر، وكالترخان في آسيا الوسطى، وخنالك في الهند، تعني، في المعنى الأصلي، زاوية أو ركن، وفي المعنى الواسع، خلية منعزلة أو ديرا أو تكيّة"¹. نُظر إلى الزاوية من جهة كونها واحدة من الجمعيات السريّة التي تنسج خارطة العالم الإسلامي غير المرئية بدءا بالهند حيث كان التأسيس² ممثّلا في نزعة التصوّف الذي "ولد في الهند وتجلّس في فارس... وفيما بعد عن طريق الفلاسفة العرب... واليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، يزهر، رغم انتكاسه..."³.

إنّ لهذا النوع من المؤسسات ترسانة من المصطلحات التي تميّزها، بل تميّز بعض من بعض. من ذلك تسمية المنتمين إليها. فإضافة إلى الشيخ والمقدّم هناك "الوكيل-النقيب-الشاوش-الطلبة"⁴. بل إنّ هناك تسميات تخصّ طريقة دون أخرى، مثل الفقير، بتثليث القاف



والصاحب والخدم... الخ. لقد "احتفظت القادرية وفروعها بالاسم البارز "فقير". وتسمي التيجانية أتباعها ب"أصحاب"، والطرق المحلية، عامة، مرابط كرئيس، ويسمّونهم خداماً"⁵. إن هذه المؤسسة ذات اسم وقد تمكنت من صناعة ترسانة من المصطلحات الخاصة بالفضاء أو المنتمين إليها أو حتى التعليمات التي ستميز بها الواحدة من الأخرى. وإضافة إلى ذلك هي ذات نظام داخلي تعليمي تعبدي لا يقبل سوى المنتسبين إليه خلافا للجوامع والمساجد. يقول ديون وصاحبه مختلن تعريف الزاوية: "في كلمة واحدة، كلّ فضاءات اجتماع مريدي طريقة، كلّ أماكن يستقرّ فيها المدرّس لتعليم القرآن، حيث مسلمونا المتعصبون يقيمون صلاتهم ويمارسون طقوسهم الصوفية، هي زوايا مقابلة مع المساجد والجوامع... التي يدخلها كلّ المؤمنين"⁶.

2.1.2. السرية: ولا خلاف في أنّ فضاء الاجتماع والاتّجاه والتعبّد يكون وجوده لاحقاً لولادة العقائد والأفكار والتعليمات في الذوات الفردية أو الجماعية. يقولان: "أما عقيدتهم... فهي أقدم بكثير من مؤسستهم: إنّها التصوّف الذي هو في جوهره وحدة الوجود"⁷. يُبنى، إذن، عالم الأفكار أولاً ثم يكون تأسيس الفضاء الذي فيه يتبلور ذلك الفكر، ومن ثمّ تبرز الجمعيات المؤنّثة له. فقد "بدأ التطوّر العجيب مع القرن الثاني عشر... أخذت تنشأ دون توقّف فروع صوفية جديدة... الطرق الرئيسية الخمس: القادرية ذات القائد، رمز الإنسانية، كلّها رحمة وذكران الذات والإحسان؛ والخلواتيّة أهل الأمل والشطحات؛ والشاذليّة الروحانيّون؛ والنقشبندية الانتقائيّون؛ والسهروردية أهل عقائد وحدة الوجود"⁸.

وللجزائر نصيب وافر من الحضور الطريقي، ومن ثمّ تكون لها سماتها المميّزة في هذا الشأن. إذ إنّ "من بين التجمّعات الثلاثة والعشرين الممثّلة في الجزائر، لبعضها فيها مقرّات رئيسية، وتكتسي، من ثمّ، الخاصيّة المحليّة؛ والآخرين أسيادهم في بغداد، وفي مصر، وفي المغرب، وفي طرابلس الغرب"⁹. هذا الحضور الطريقي المكثّف تشفّ عنه إحصائيات دقيقة وقّرها هذا الكتاب المعتمد مدوّنة لهذا البحث. إنّها إحصائيات تتناول الزوايا وفروعها والعناصر البشريّة المؤنّثة لها وتصنيفاتهم: "إنّها تتفرّع إلى أكثر من ستين مجموعة تتضمّن 349 زاوية، و76 وكالة، و2000 طالب، و57 شيخاً، و2149 مقدّماً، و1512 شاوشاً، و224141 من الإخوان، و8232 درويشاً، و19821 من الأحباب، و27172 من الأخوات، و36 من الخلفاء، و5894 من الفقراء، و4000 خادم. وفي الجملة ما يقارب 300000 منخرط..."¹⁰.



والزاوية باعتبارها مؤسسة ذات أبعاد دينية بالأساس، في نظر هذين المستعربين، كما تقدم، داخلية في حيز الخفاء والسرية، إضافة إلى كونها تقف بأعلامها، في الطرف المقابل للعلماء كما لو كانوا رموزا لعالم الظاهر وأصحاب الزوايا رموزا لعالم الباطن المتحكم فعلا في تحرك المشهد الديني الذي هو بدوره بعض من المشهد الثقافي. ف"هذا العالم متكون من جمعيّات سرّية، وتعليمات دراويش، وزوايا صوفيّة، بمعنى آخر... (متكون) من الإخوان المنتشرين منذ القدم إلى حدود نهر الغانج"¹¹، هم في نفس الوقت الأعداء للدودون للعلماء، والمحركون الحقيقيون للمجتمع المسلم"¹².

3.1.2. النشأة: ولا يخفى على ذي نظر أنّ نشأة الزاوية، باعتبارها مؤسسة ذات توجه ديني، لا تكون دفعة واحدة، ولا تخلو من مؤثرات سابقة، ولا تظلّ واحدة، وإنّما تشهد تفرّعا يعلن تطورها شكلا ومضمونا. فالملّاخظ أنّه "شيئا فشيئا تكوّنت هذه الجمعيّات، وكبرت، وبتكاثرها انقسمت إلى فروع عديدة برزت في شكل زوايا، تنظيمات..."¹³. والملاحظ، كذلك، أنّ هذين الكاتبين، رغم تفضّلهما لخاصيّة التفرّع الملازمة لنشأة الطرق، لم ينتهيا إلى خاصيّة أخرى تتعلّق بنشأة هذا الهيكل التنظيمي ألا وهي التسلسل الوراثي. فقد كان "وضع أبو سعيد محمّد أحمد المهيّمي الصوفي الإيراني (357-430هـ)... أول هيكل تنظيمي للطرق الصوفيّة بجعله متسلسلا عن طريق الوراثة"¹⁴. وهذا الأمر مهمّ في تشكيل المشهد الثقافي من جهتي التنظيم والتداول على المراتب ضمن بنية هرميّة واضحة المعالم.

2.2. الهرميّة:

وهي من المقوّمات التنظيميّة لهذه المؤسسة. ذلك أنّ المنتسبين إليها منتظمون وفق تسلسل هرميّ مشدود بعضه إلى بعض بجملة من الروابط الروحيّة المبنية على القيادة والافتداء والأخذ والعطاء.

1.2.2. الشيخ وخليفته: إنّ فكرة المقارنة بين ما شُوهِد في الجزائر بشأن الطرقيّة وما تمّت معانيته فيها، لا تكاد تغيب عن هذا النوع من الكتابات ذات الصبغة الدينيّة خاصّة. فقد سجّل الكاتبان تراتبيّة عامّة شبيهة بما عندهم، ينتظم وفقها المنتمون إلى الإسلام. ف"في ذروة الهرم، الخليفة الذي هو عند المسلمين نظير البابا عند الكاثوليك... القائد الأعلى للدين"¹⁵. وسجّلا، كذلك، تراتبيّة خاصّة بالمنتسبين إلى طريقة ما، صورة مصغّرة للتراتبية العامّة. إذ "يكون في قمّة التسلسل الهرميّ الشيخ... مدير النظام الروحيّ والزميني"¹⁶. وللشيخ مجموعة من المزايا التي تميّزه من غيره. فهو "رجل ذوق قدرة مطلقة وعلم بكلّ شيء"¹⁷. وليس عجيبا أن يكون



الشيخ واعيا بقوته تلك مدركا لحدودها مقرًا بسلطة الله عليه وكذلك سلطة رسوله عليه الصلاة والسلام. وهذا شاهد في الغرض: "لا يعترف الشيخ بسلطة أخرى فوق سلطته، إلا سلطة الله الأحد ورسوله"¹⁸.

وما ذلك الاقتدار الجامع بين القوتين المادية والمعرفية سوى منحة إلهية. فهو "مفضل من الله الرحمان الرحيم، الذي بسط عطياه على شخصه مفوضا إياه بشاراة من كل قوته (البركة) التي جعلت منه وسيطا ملزما لدى البشر"¹⁹. وليست المعرفة التي يملكها بمنصرفه عن شواغل الناس. إنما هي موجهة إلى الناس وما ينفعهم في حياتهم الدنيوية والأخروية من جهتي الصحة البدنية والصحة الروحية: "إنه الرجل الذي له معرفة كاملة بالشريعة، الذي بلغ درجة الإتقان في فن معرفة العيوب والأمراض التي تصيب النفوس، والعلاجات المحددة لإرشادهم إلى طريق الله"²⁰.

وأما الخليفة فمرّد تسميته إلى كونه يخلف الشيخ. فهو يأتي في المرتبة بعده. لذلك "يوجد في المرتبة الثانية الخليفة أو نقيب الشيخ"²¹. وفي خلافته للشيخ نوع من النيابة. إذ "يعرف أحيانا ب"نائب"، وسيط... يمارس كلّ صلاحيات الخليفة دون أن يكون مستثمرا هذا اللقب رسميًا"²².

2.2.2. المقدم ووكلاؤه: وله المرتبة الثانية، بعد الشيخ وخليفته. ف"تحت الخليفة، المقدم، نائب مقاطعة"²³. ويبدو أنّ المقدم مخوّل للوساطة بين الشيخ والناس، أو العامة ممّن ينتمون إلى طريقة ذلك الشيخ وممّن يرتادون زاويته. إنّ "المقدم" منقذ أمين للتعليمات التي يعطيه إياها الشيخ شفويًا أو بكتابات مرسله، ممثله لدى العامة، المروّج الحقيقي لعقائد الطريقة، روح الطريقة، أحيانا مبشّر، وأحيانا مدير الدير، عالم: متعلّمًا أم جاهلاً"²⁴. ويطلق عليه هو الآخر لقب نائب لهوضه بمهمة النيابة عن الشيخ في الحيز المكاني الذي أنيط بعهدته: "يحمل المقدم... هو الآخر لقب نائب..."²⁵.

وداخل هذه الرتبة ينضوي وكيل المقدم الذي يساعده في مهمة الإخبار والإعلام والتنبيه. جاء في كتاب ديبون وكوبلاني ما يلي: "للمقدمين، عموما، وكلاء خاصون، نوع من المراقبين... مكلفون أساسا بتحذير المبتدئين بيوم حضور السيد، لتعريف الإخوان المجتمعين بالتعليمات المكتوبة أو الشفوية التي تصلهم من المقدم من حين لآخر وضمان علاقات المريدين بزعيم النظام"²⁶. وقد تختلف تسمية الوكيل من طريقة إلى أخرى. ف"في بعض



الطرق (الرحمانية، والطبيية، والحنصالية)، يحمل هؤلاء المساعدون اسم شاوش²⁷. كما لو كانت مهمتهم الوقوف عند باب المقدم انتظارا لتوصياته وتطبيقا لأوامره.

3.2.2. المريد: هناك مرتبة ثالثة لا تبدو ذات نفوذ. ولكن قيمتها تكمن في تشكيلها لقاعدة الطريقة من جهة، ولاعتبارها المجال الذي إليه تُوجّه التكاليفات، وفيه تتم الإجراءات. يقول ديبون وشريكه: "وختاماً، يأتي في آخر سلم التراتبية حشد المريدين المؤهلين بشكل مختلف بحسب الطرق التي إليها ينتمون. وربما اختلفت تسميتهم من مكان إلى آخر: ف"اسمهم العام إخوان، في إفريقيا الشمالية، و دراويش في الشرق"²⁸. وقد تتنوع ألقابهم بين تلميذ وطالب ومدرس. وذلك بحسب الدور الذي ينهضون به. فهم "يطلق عليهم... تلاميذ... تلميذ الشيخ، أو طلبة... حرفياً: الذين يطلبون العلم. وهذا الاسم يُحفظ لهم حين يغادرون الزاوية إلى القبائل حيث يستقرون، بصفة مدرّسين"²⁹. ومن الواضح أنّ هذه الدرجة الثالثة في بنية الطريقة الهرمية تمثل القاعدة التي عليها الارتكاز لا سيما في المعارك التي يخوضونها ضدّ خصومهم من أصحاب الطرق الأخرى ومن الاحتلال الفرنسي. وهؤلاء المريدون، بأعدادهم الكثيرة، هم من يحدّدون درجة قوّة الطريقة ومدى انتشارها.

ما يمكن أن يسجل في هذا المستوى من البحث أنّ فئتين أخريين غير مدرجتين في السلسلة التراتبية هما فئة الدراويش وفئة الأشراف. ولعلّ ذلك عائد إلى افتقارهما إلى دور مخصوص يناط بهما ضمن الشأن التنظيميّ الطرقيّ. أو لعلّ في صلة الشريف بالطرق نوعاً من العداء. ف"الشريف الذي تحوّل إلى مرابط في إفريقيا الشمالية والذي لعب دوراً كبيراً جداً في الحياة السياسيّة بالمغرب. هو الذي حضّر توعية البربر لغزو الطرق الدينيّة"³⁰. يقول ديبون وكوبلاني: "التصوّف الإسلاميّ يتضمّن أيضاً شخصيتين أخريين: الأولى، الدراويش... الذي نلقاه في كلّ مكان... وخاصّة في محيط الزوايا... والثانية، ذات نبل دينيّ لكونها من نسل بنت النبيّ"³¹. ويعني الأشراف.

3.2 . الوظائف: وتتمثّل في جملة من الأدوار التي يمكن تصنيفها إلى عامّة تمثّلها الأنشطة التنظيميّة التي توظّف فيها الزاوية، وخاصّة بكلّ دور مناط بعهدة كلّ عضو من أعضاء الطريقة، وأخصّ، وهي تلك التي للشيخ لا يشاركه فيها غيره. كما يمكن تصنيفها إلى وظيفة قياديّة، ووظيفة تعليميّة ووظيفة إعلاميّة.

1.3.2. الوظيفة القياديّة: ومن وجوه القيادة أن يكون القائد قدوة لغيره من الأتباع. وعلى قدر انغماسه في ممارسة تعبداته يكون مثالا حياً للاحتذاء. وقد يأخذ الاحتذاء أشكالاً



كثيرة كثيرا ما تتجاوز المرئي والمسموع لتدخل في مرحلة الانتشاء. يؤشر الكاتبان على هذه المسائل الأخذ بعضها برقاب بعض بدءا بالهدف النظري التعليمي العام وانتهاء بالتطبيقات الفردية والجماعية: "لقد رأينا، أعلاه، كيف ولأي غرض ابتكرت مختلف الطرق الدينية هذه الأنواع من المنشآت. أديرة القادرية والخلواتية، ومحاضن الرافعية والششتية والسعدية والعيساوية،... الخ، كان لها عدد معتبر من الخلايا حيث يستسلم الرهبان لحياة الزهد، وقاعة واسعة حيث يتلو الأتباع ذكر الحضرة، مصحوبا بشطحات متشجعة وشعوذات غريبة؛ حيث انتشاء التائبين يحاكي الهستيريا"³². من البين أن هذه القيادة، رغم أنها روحية بالدرجة الأولى، فهي ذات آثار مادية في المريدين تتجلى خاصة في فترات التوتر و زمن الحرب حين يخوض الجميع الحرب تحت قيادة الشيخ أو من ينوبه من الخلفاء والمقدمين.

2.3.2. الوظيفة التعليمية: وتخص هنا القائمين عليها وما يتعلق بها من منهجية تعليمية دون التطرق إلى المادة العلمية التي محل النظر فيها يكون لاحقا في موضع الحديث عن المقوم العلمي للمؤسسة الطرقية. يندرج طرح هذين المستعربين للشأن التعليمي، في هذا المنجز المشترك بينهما، كما عاينوه في الزوايا بالجزائر، ضمن رؤية مقارنة بين ما تخلد في الذاكرة الجماعية الأوروبية وبين ما هو معمول به، فعلا، في نظام الزوايا. يقولان: "عندنا، في الجزائر، الإكليروس الإسلامي الرسمي لا يلعب، من وجهة نظر دينية، سوى دور باهت. العلماء يهتمون بتلاوة أدعية وتعليم القرآن وحفظ السنة: ليس لهم أي طابع كنسي"³³.

نحتفظ من هذا الشاهد بثلاث ملاحظات على قدر بالغ من الأهمية. الأولى مدارها على المركب التعبيري التالي: "الإكليروس الإسلامي الرسمي". ثلاث عبارات لكل منها دلالة ثقافية خاصة، فالإكليروس الذي تقابله في الفرنسية لفظة (clergé)، يعني رجال الكنيسة أو رجال الدين. لقد حمل هذان المستعربان هذه التسمية من مجالها الكنسي إلى المجال الإسلامي. وهذا إسلامي مغاير لا يقبل ما ليس منه. وأما العبارة الثالثة فهي "الرسمي"، وباستخدامها يكون استبعاد لكل ما ليس رسميا. ومن ذلك الطرقية التي ظلت، غالبا، محيرة في الهامش. ولا ريب في أن المقصود ب"الإكليروس الإسلامي الرسمي" هم رجال العلم من الفقهاء خاصة. ها هنا تأتي الملاحظة الثانية التي تجلّى فيها دور العلماء العليّ التعليمي. وأما الملاحظة الثالثة فتتعلق بصفة هؤلاء العلماء. ف"ليس لهم أي طابع كنسي". وهي نتيجة طريفة تمّ التوصل إليها، دلت على طبيعة النسيج المعرفي في الجزائر عصرئذ. وهو، في أصوله وملامحه وأبعاده، مغاير لما هو مألوف في أوروبا.



لم يصحّ ديون ورفيقه بطبيعة هؤلاء العلماء رغم تأكيد خلّوهم من النزعة الكنسية. ولكنهما أشرّا على نهوض العلماء بالوظيفة التعليمية. وقد تنهّا، كذلك، إلى الدور التعليمي الذي يقوم به نائب الشيخ، النقيب، المسمى أيضا شيخ الحضرة. فوظيفته التعليمية تتمثل في تبيان الممارسة التعبدية المعتمدة في الطريقة. فهو مكلف "في الأيّام العادية، بسير الصلاوات. يملأ في ذلك دور الإمام ويعلم المبتدئين الركعة بحسب المذهب المعتمد في الزاوية"³⁴.

ومن الواضح أنّ التعليم المقدم في الزوايا شهد تدخّلا من السلط الحاكمة. إذ ضببت بعض متعلقاته في مناشير. ف"البنود من 49 إلى 56 من المنشور ذاته تنظّم أوقات فتحها وغلقها، وذهبت إلى حدّ تعيين الزيّ، بالفرنسية، في كلّ مدرسة (زاوية)، "دفر عليه يجب أن توجد أسماء التلامذة، وتاريخ ولادتهم واسم أبيهم ومقرّ سكنه"³⁵. بل إنّ هذا التدخّل شمل جملة من الشروط التي فرضت على الزوايا باعتبارها مدارس تقدّم التعليم والتربية. لقد "نظّم منشور السيّد الحاكم العام، في 1852، بتاريخ 6 أكتوبر، الشروط المسموح للمدرّس فيها بممارسة مهنته. وكان هدفه"³⁶ تخليص القبائل من الطلبة المغاربة والتونسيين الذين كان تعليمهم يشكّل خطرا لمصالحنا السياسية"³⁷. بل إنّ التدخّل بلغ حدّ تسليم الرخص من عدمه. لذلك كان الالتجاء إلى وسطاء هم أعرف بأهل الطرق من غيرهم. لقد "قرّر الجنرال شنزي (Chanzy) أنّ "الرخص سيسلمها الإداريون أو رؤساء البلدية أو كبار القادة، بعد استشارة الشريك الأهلي أو الشيخ، في الدوّار الذي يرغب المدرّس في الاستقرار به"³⁸.

غير أنّ هذه التدخّلات المتنوعة شهدت تذبذبا بين الإلزام والإلغاء. وكان لذلك أثره في الوظيفة التعليمية، ومن ثمّ في تركيبة المشهدين الفكري والثقافي اللذين يتجدّدان كلّما أُتيحت، في ظلّ الاحتلال الفرنسي، فسحة من الحرّية. جاء في كتاب ديون وكوبلاني ما يلي: "ألغى منشور 18 أكتوبر هذه التعليمات واليوم... يمارس الطلبة مهنة المدرّس دون رقابة. والعقائد التي يدرّسونها مطابقة لمذاهب الزاوية التي منها تخرّجوا. أغلهم يصبحون مقدّمين متنقّذين؛ والآخرين يجوبون القبائل ممارسين مهنة الكاتب العمومي..."³⁹.

3.3.2. الوظيفة التأمينية: وهي متعدّدة الأوجه: تأمين الملجأ والغذاء والشفاء وسبل الارتقاء الروحي. معنى ذلك أنّ هذا الضرب من المؤسسات يؤمّن احتياجات الإنسان الحيويّة والوجوديّة ويستجيب لمتطلّباته العاجلة والأجلّة. فالزوايا تستقطب الناس بمختلف توجهاتهم وتطلّعاتهم وطموحاتهم من خلال هذه الوظيفة التأمينية. ومن ثمّ يكثر أتباعها ويزيد عددهم بشكل سريع. وهذا شاهد في الغرض اجتمعت فيه فئات شديدة التنوّع ممّن تشعّ عليهم الزاوية



بخدماتها المتنوعة: "الزاوية، أيضا، هذه المنشأة نفسها حيث الفقير يجد طعاما مؤمنا؛ والمريض، غير المشفي، يجد شفاءات عجيبة؛ والفلاح، يجد طمأنة لآلامه، وأملا في المستقبل؛ والمرأة العقيم، تجد الخصوبة؛ والمجرم، والمضطهد، والمبشر، والحاج، والمشترد، يجدون ملجأ مصونا وحماية مجدية"⁴⁰. وأما القائمون بالدور العلمي المعرفي، أي الطلبة، فهم أيضا تؤمن حاجاتهم المادية والمعنوية. ف"الطلبة المدرسون يجدون عند الفلاح الموسر العون والحماية"⁴¹.

وللإجابة عن سؤال من نوع: ما مصدر الأموال التي تصرف في عملية التأمين هذه؟ نقتطف هذا الشاهد: "لا يجب البحث في التجمعات الإسلامية عن منظمة منهجية، ومداخل قارة أو نظام مالي مؤسس. لا وجود هنا لمحاسبة ولا دخل أو نفقات واجبة بالمعنى المطلق للكلمة، لا شيء من توليفاتنا المالية العلمية. المداخل مثل النفقات، من جوهر إلهي، ومصدرها الوحيد هو صدقات المؤمنين التي لا تنضب"⁴². هناك تأكيد لخلو النظام الطريقي من تنظيم مالي بالمفهوم المتعارف عليه في أوروبا. وهناك إقرار بأن مصدر المال من المؤمنين أنفسهم. فهو تأمين مالي ذاتي تؤمنه مصارف المال في الإسلام مثل الصدقة والزكاة والأوقاف. لذلك هي "لا تنضب". ولذلك هي من "جوهر إلهي". غير أن الصورة الحقيقية والعملية لهذه المداخل المالية تتجلى أكثر إذا ما علمنا أنه "لا قبر من أضرحة الأولياء الشعبية هذه، ولا زاوية مسيرة من لدن أخلافهم، إلا وتكون محاطة ببعض الهكتارات من الأرض الخصبة يكون الانتفاع بها محبسا لصالح هذه المنشآت الدينية"⁴³.

أما القائم على عملية التأمين إداريا فهو شخصية مخول من لدن شيخ الطريقة في التصرف المالي جمعا وتوزيعا. إنه "المتصرف في أملاك الزاوية، وكيل الشيخ، رجل الأعمال، المدير، الممثل المفوض، هو الوكيل، شخصية معتبرة بوظائفها، الذي يظهر في كل الظروف الصعبة، الوسيط بين الشيخ وغير المؤمنين"⁴⁴...⁴⁵. ولئن كان دور المتصرف إداريا بالأساس فإن جمعا من الخدم ينهضون، تحت إشرافه ووفق توصياته، بعملية الجمع والتوزيع خلال الاحتفال بالعيدين الفطر والأضحى. وهذا ما لاحظته ديون ورفيقه حين قالوا: "نلاحظ أن، مع الوكيل أو تحت إدارته، عددا من الخدم (الشواش) مكلفين بالتوزيع... حين يجمع الشيخ في الحضرة شخصيات الطريقة المرموقين، أو في حفلات العيد الكبير والعيد الصغير، الفترة التي يأتي خلالها الأتباع لتقديم عطاياهم وقبول بركة شيخهم"⁴⁶.

وهناك تقليد آخر يُمارس في الزوايا، يعرف بالزردة، تتجلى فيه الخدمات التأمينية وبعض أبعادها: إن "الشخصيات الدينية التي كانت تركز على الكثير من التبرعات الثمينة التي



يستخدمونها أو يوزعونها لغاية إنسانية كانت تزيد شهرة قداستهم مع حصيلة إحسان خدمهم. إنَّ الهيبة الروحية التي تتمتع بها شخصية ورعة تقاس بآساع "زردته" (مأدبة على شرفه) التي تقدّم في أوقات متعارف عليها⁴⁷.

تتنوع، بناء على ذلك، العلاقات الإنسانية والروابط الاجتماعية والصلات الفكرية، والأشكال الثقافية الاحتفالية والائتمانية داخل الزوايا، وتتجدد الحركية، في مثل هذه المناسبات الاحتفالية، فتكسب المنطقة التي تحتوي الزاوية خصوصيتها الثقافية.

3. المقوم العلمي للمؤسسة الطرقية:

ليس المقصود بالمقوم العلمي مجالات التخصص في العلوم والمعارف، وإن كان هذا من مسائل البحث المهمة في الشأن الطرقي. بل إنّ المراد النظر فيه، ها هنا، هو ما تقوم عليه الطرقية في مسألة العلم سواء في ذلك المواد التعليمية المقدّمة لطلبة العلم أو التعليمات الخاصة بكل طريقة أو الانتظارات في مجال العلم، تلك التي تمثل آفاق التلقّي المعرفي. ينتظم هذا العنصر، تبعاً لذلك، وفق ثلاثة عناوين فرعية، هي: المواد العلمية والتعليمات والانتظارات.

1.3. المواد العلمية: من الأسس التي تقوم عليها الطريقة توظيف المعارف والعلوم لاستقطاب الأتباع وتكوينهم علمياً وتربوياً. ويبدو أنّ هذا الدور الوظيفي أصيل في الطرقية معتبر في الزاوية. إذ لا تخلو زاوية من نشاط علمي دفع ببعض الباحثين من المستعربين وأرباب الاحتلال، إلى اعتبار الزوايا مدارس من نوع مخصوص، كما تقدّم. والذي يعني هنا، على وجه التخصيص، هي المواد التي يقدّمها القائمون على الشأن التعليمي وفي إطار تعليمي. ف"المبتدئون من كلّ الدرجات... القادمون من كلّ النواحي لإتمام دراساتهم القرآنية، يطلق عليهم... تلاميذ... تلميذ الشيخ، أو طلبة... حرفيًا: الذين يطلبون العلم"⁴⁸.

ومن المهمّ الانتباه إلى أنّ هؤلاء الذين يطلبون العلم الذي هو إتمام الدراسات القرآنية سيصبحون بدورهم مدرّسين لهذه المادة العلمية. فالطلبة: "يعلمون بدورهم مفاهيم قرآنية تمثّل، عموماً، كلّ رصيدهم العلمي"⁴⁹. نحتفظ من هذا الشاهد باختزال المادة العلمية في عبارة "مفاهيم قرآنية" التي تفتح على خيارات علمية كثيرة لأنّ العلوم القرآنية متنوّعة داخلة في علوم الحديث والفقه والقضاء... الخ. يضاف إلى المادة القرآنية موادّ أخرى مصرّح بتقديم العلماء لها في إطار تعليمي تربوي يخصّ الزوايا. "وبالفعل، هناك في الزاوية مكان مخصّص



للتربية المدرسية للأطفال، أو الطلبة يتعلمون، أو أن العلماء يناقشون بعض الأسئلة العلمية، ويلقون شروحا حول الأحاديث ومختلف تفاسير القرآن... الخ⁵⁰.

ولا يفوتنا التفطن إلى ما حواه هذا الشاهد من إشارة إلى مناقشة الأسئلة العلمية، إضافة إلى الشروح والتفاسير. فهذا التعليم متجاوز للتلقين، منفتح على أعمال العقل وطرح السؤال. وهي ميزة تحسب لهذا الضرب من التعليم المغاير لما ألفه ديون ورفيقه في تراثهم التعليمي. يقولان: "العلماء يهتمون بتلاوة الأدعية وتعليم القرآن وحفظ السنة: ليس لهم أي طابع كنسي..."⁵¹. لقد أشّر هذان الكاتبان على خلق التعليم الطريقي من الصبغة الكنسية التي تسم التعليم الديني في البلاد الأوروبية. وهذا مهم. فعلى قدر تحرر المعرفة من التسلط "اللاهوتي" تكون الإفادات المعرفية المطورة لحياة الناس بعيدا عن الأوهام والخرافات. إن هذا التعليم الذي تنبثق المواد التعليمية فيه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة جاز أن يوسم بالتعليم بالديني أو الإسلامي، على وجه التخصيص.

ولكن هذا التعليم لا يقف عند تدريس مادتي علوم القرآن وعلوم الحديث وما اتصل بهما وتفرع عنهما من معارف، بل إنه تعليم يضارع، من جهة مواد التدريس، ما يوجد في المدارس. يقول الكاتبان: "كثيرا ما ترجمنا، في الجزائر، كلمة "زاوية" بمدرسة، وبهذا التفكير، لم نكن نرى فيها سوى منشأة تعليمية حيث اللغة العربية والقراءة والكتابة وحفظ القرآن والتاريخ والجغرافيا والفقه والفلسفة والتوحيد وإلى حد العرافة، مدرّسة"⁵². إن تجميع هذه المواد العلمية في هذا الشاهد يؤكد السمة الفكرية والخاصية العلمية والغاية التثقيفية لواجبي هذه البرامج التعليمية.

إن التعليم الطريقي، بهذه المزايا، يساهم بقدر كبير في صياغة المشهد الحضاري في الجزائر، مثلا، لولا جنوح بعض الطلبة القائمين على الشأن التعليمي إلى ممارسة التطبيق. فينأحون بالطب إلى الشعوذة وما يتعلّق بها من ممارسات ممجوجة. يقول ديون وكوبلاني: "وقد يتجاوزون هذه الدرجة من التعليم إلى نوع من التطبيق الذي يخولون أن "يصبح الطلبة... عند الأهالي، الأطباء السحرة... نراهم مزوّدين ببضع أوراق من القرآن، موسوعتهم كلّها، محفوظة بعناية في مخلاتهم، يعطون تعويذات عجيبة و تائم مقدّسة، يعالجون الأمراض المستعصية"⁵³.

ومهما يكن من أمر هذه الممارسات الخالية من المعرفة والتخصّص والتجريب، فإنها تطبع المشهد المعرفي بطابعها الخاص الذي هو أقرب إلى الجهل منه إلى العلم والذي يبتعد



بالتعليم الطريقي عن غاياته المعرفية الصرف. وبمثل هذا ستتراكم الملامح المعرفية السلبية الناتجة عن تصورات خاطئة مضللة لزعماء الطرق الدينية، وسيكون مآل تعلم العامة الشرك بدل التوحيد. إذ "سيبحث الصوفيون الذين سيصبحون زعماء الطرق الدينية، دون جدوى، في القرآن عن الدعائم التي تنقصهم لأسلمة تعليمهم: يتحركون ضعفاء، وكما لو أنهم في دُوار يتيهون في عمق الشرق القديم الذي حفظ... في الدين والأدب والكلام والمؤسسات، هيأته الخاصة، نوعاً من تأليف الشرك بالله الذي هو ليس سوى وحدة الوجود تلك"⁵⁴.

2.3. التعليمات: وهي جملة ما تضعه الطريقة من أنشطة حركية وقولية ونفسية قصد إعادة بناء المريد روحياً. وتكون هذه التربية الروحية بتخلية المريد من الرذائل، لتحليلته، فيما بعد، بالفضائل، إصلاحاً للقلب وتزكية للنفس. وهذا التحول المطلوب، يقتضي من المريد، جهداً وعزيمة، ومن أسياده توجيهاً وترويضاً. وقد ضمّن عبد الرزاق الكاشاني (ت730هـ تقريباً) كتابه الموسوم بـ معجم اصطلاحات الصوفية، جملة هائلة من هذه التعليمات المدعومة بالشرح والتمثيل⁵⁵. ومن الواضح أنّ هذين الكاتبين لم يكن تفصيل القول في التعليمات بالأمر المستهدف. بل إنهما كانا يتّجان رأساً نحو آثار تلك التعليمات في أصحاب الطرق بمختلف مراتبهم.

فإذا كانت الطرقية تسعى إلى تأمين سبل الارتقاء الروحي لمريديها، فإنّ أرض الإسلام كانت قد عرفت "آلاف المتأملين والمنعزلين الذين جمعوا حولهم أتباعاً، والمؤسسين لتعليمات دينية، وضعت، فيما بعد على لسان قديسين كانوا قد نظّموهم"⁵⁶. وما تلك الجهود المبذولة من لدن أصحاب التأمل سوى ضرب من استدراج الأتباع نحو عالم آخر خفيّ له وجهان: وجه باطني وآخر يتبلور عنه تبعاً، أي "... أن يقرّ في وعي الإنسان الروح الخفية للقانون في علاقتها بالحرف، وليصل، عبر ممارسات ورعة، إلى حالة صفاء أخلاقيّ وروحانيّة حدّ التمكن من رؤية الله مباشرة ودون حجاب، والاتّحاد به"⁵⁷. ولا يتحقّق هذا الهدف المزدوج إلّا متى كان المريد عارفاً بالعناصر الأساسية للطريقة التي انتسب إليها. يذكر ديبون وكوبلاني بعضاً من تلك التعليمات مشيراً إلى وصل الطرقية بينها وبين القرآن والسنة وعلم التوحيد، من جهة والرموز الصوفية، من جهة أخرى: "العناصر الأساسية للطرق: البركة والورد والذكر والطريق والوصية والتوجيهات التي... يصلون بها تعاليمهم بالقرآن والسنة، وآراء علماء التوحيد في هذه المادة، والرموز والكلمات المستعملة: خرقة وسلسلة..."⁵⁸.



لا تكاد تخرج التعليمات الصوفية عن أشكال التعبد في الإسلام من صلاة وترتيل قرآن وأوراد وذكر. لكنّها تعليمات قابلة للتأويل والتطوير والتميز. لذلك برزت جملة من المصطلحات الجديدة الخاصة بالطريقة بدءا بالطريقة وانتهاء إلى الاتحاد، ومرورا بالتخليّة والتحلية والخرقّة والمقامات والكشف.

ولعلّه من المفيد التمثيل لتعليمات بعض الطرق من جهة سلسلة العلماء الذين تصدر عنهم تلك التعليمات. المثال الأول يتعلّق بالطريقة الرفاعية حيث "يؤسس سيدي أحمد الرفاعيّ تعليمه على السلط التالية التي تكوّن السلسلة الصوفية للطريقة: أحمد الرفاعيّ، وأبو الفضل، وعلي القاري، وأبو الفضل بن كباح الوسيطي، وعلاّم بن تركان..."⁵⁹. ولا تكاد تختلف الطريقة السعدية عن نظيرتها الرفاعية. إذ "تؤسس السعدية، مثل الرفاعية، تعليمها على: 1. وحي كان لسيدهم عبر النبيّ، 2. على السلسلة الصوفية التالية الراجعة إلى علي بن أبي طالب عبر أبي القاسم الجنيد..."⁶⁰.

أمّا التيجانية فأمّرها مختلف. ذلك أنّ شيخ الطريقة يمارس نفوذا شديدا على أتباعه يبلغ إقصاء الشيوخ الوسطاء: "يبدو الشيخ التيجانيّ... راغبا في أن يظهر أشدّ تعليماته محكمة ولا تقبل أيّ إهمال. نلاحظ، خاصّة، العناية التي بواسطتها سعى إلى إقصاء الشيوخ الوسطاء الذين عليهم يدعم مؤسسو الطرق الأخرى تعليمهم. مهمّة إلهية كلّيا: إنّهُ يقفز فوق الدرجات الصوفية ويصل مباشرة إلى النبيّ"⁶¹. ولئن كان هذا سلوكه تجاه مريديه فإنّهم هم أيضا عليهم التزامات مفروضة: "كذلك مريدوه ليس عليهم أن يعترفوا بغيره من رسل الله، ليس عليهم أن يتبعوا طرقا أخرى إلّا طريقته خشية أن ينالهم العقاب الأبديّ"⁶².

ومن هنا تكون التعليمات التي يفرضها الشيوخ ونوَاهم على الأتباع، سببا في تملك الطريقة منزلة مهمّة في المجتمع وعلاقات رفيعة المستوى مع أرباب الحكم. إنّ "هذا التفرد جعل من التيجانية نوعا من الطرق السيادية، ذات مشاركة سياسية-دينية مع شخصيات مرموقة ممثلة للنبيّ، وخداما مرتبطين بأسيادهم عبر الالتزام الذي لا يعرفون انتهاكه"⁶³. ثمّ إنّ شيخ الطريقة يستمدّ تعليماته من شيخه الخاص المتأثر به. لقد "كان الشيخ سيدي أحمد التيجانيّ تابعا لمسالك كثيرة ذات نزعة صوفية-انتشائية. يروق له أن يقرّ بفضائل ومعجزات معلّمه الروحيّ الشهير محمّد الكرديّ خلف الشيخ الحفناوي، معلّم خلواتيّة مصر الكبير. بهذه الشخصية المقدّسة يربط تعاليمه"⁶⁴.



ولا شك في أنّ هذين المستعربين، رغم اهتمامهما بكلّ شاردة وواردة في الطرق الدينيّة في الإسلام، فإنّهما لم يوليا مسألة التعليمات العناية الكافية. ونعتقد أنّ ذلك يُعوى إلى سببين، على الأقلّ: الأوّل مداره على قلة الإفادة المجتناة، بالنسبة إليهما ومن يقف وراء مشروعهما البحثي هذا، من إدامة النظر في ذلك وتشقيق أحواله. وأمّا السبب الثاني، وهو في اعتقادنا الأهمّ، فمرّدّه إلى عجزهما عن إدراك كنه تلك التعليمات والأحوال التي يكون عليها أهل الطرق متى أجروا تلك التعليمات. وهذا العجز له تفسيره. إذ إنّ ارتباط التعليمات بأحوال الباطن والذهاب فيه أشواطاً وأشواطاً، لا يتيح لغير أهل التخصص فهمه واكتناه جوهره.

3.3. الانتظارات: المراد بالانتظارات، هنا ما يُعتقد أنّه من تداعيات تلك التعليمات وقد تحوّلت من مجرّد أفكار وآراء وأوامر ونواهي إلى تطبيقات عملية بيّنة الأثر في سلوك أهل الطرق وأحوالهم ممّا هو فعلاً واقعٌ ويمكن المشاهدة والتوظيف.

تتعلّق الانتظارات، منطقياً، بالنخب الجديدة المتخرّجة من الزوايا. ولئن كانت الزاوية هي الحاضنة لهم، فإنّ منهجهم، وفق ما توفّر عليه الكتاب المعتمد في مدوّنة البحث، في نشر أفكارهم وعقائدهم يظلّ محكوماً بما طبعوا به من حماسة بالغة وتعصّب شديد. وهذا شاهد في ذلك "يخرج من هذه المحاضن العجيبة مبشّرون جدد أكثر تحمّساً وأفصح وأشدّ تعصّباً من شيوخهم. أنشأوا، بدورهم، مدارس جديدة لتعليم مذهبهم الخاصّ، ونشر عقائدهم الخاصّة، الذكر الجديد للكشف، مع ممارسات خارجيّة مستلهمة من زعيم يختارونه؛ مثل ما في المعاهد الرومانيّة، قديماً"⁶⁵. ولنسجّل هنا نزعة الكاتبين إلى مقارنة ما تلتقطه عدستهما وما يدركه ذهنهما في شأن الطرق بالجزائر، بما هو معلوم عندهم في تراثهم الرومانيّ. تتلقّى النخب الجديدة المتخرّجة من الزوايا، إذن، تكويناً يخوّل لها الخروج عن المنظومة القديمة وتأسيس مدارس جديدة تلبّي انتظاراتهم لا سيّما أولئك الذين اطلّعوا على ما به جدّدوا رؤيتهم التي ستمثّل رسالتهم إلى الآخرين. لذلك "يذهب المطّلعون عند الصغار كما عند الكبار، يحملون إلى أسماع النساء والأطفال العبارات الغامضة للقوّة الإلهيّة"⁶⁶.

ومن هذه الانتظار. كذلك، ما كان من فعلٍ بعض المنتسبين الجدد إلى الطرق. حيث "غير المنخرطون الجدد، مع الإبقاء على صلّتهم بالأشكال الثابتة للطريقة، مساحة تعليمهم بحسب حاجيات قضيتهم. بذلوا، وهم يتقدّمون في إفريقيا الشماليّة، أساليب التبشير. فلم يعد تعليم معلّمهم، بالنسبة إليهم، هدفاً فحسب، بل وسيلة أيضاً، وأداة أروع وصولاً إلى إفناء الكائن. كانوا يستخدمون المرتدّين دون التفكير في دعم سياستهم المعرّقة"⁶⁷.



ومن الانتظارات، أيضا، العمل على مضاعفة أعداد الأتباع بكلّ السبل الممكنة. ولا يخفى علينا ما ينتج عن ذلك من مآلات مربكة للطريقة في حدّ ذاتها. ذلك أنّ الكثرة المتكاثرة إن لم تتلقّ تعليمًا متينًا ولم تطبّق التعليمات تطبيقًا حكيماً، فإنّ الصراعات الداخلية ستصبح سهلة النشوب خطيرة النتائج صعبة الضبط. يقول ديون وكوبلاني: "يجب زيادة عدد الأتباع بسرعة، وليست المبادرة في هذا الهدف، سوى حلف لخضوع أعى، عقد مبرم بين الزعيم الأعلى للطريقة والمريد"⁶⁸.

فلا عجب والحال تلك أن تستحرّ منافسة أرباب الطريقة للأشراف، ومن ثمّ مقاومتهم فإزاحتهم وما ذاك إلّا لأنّ "الأشراف، هم أنفسهم، علماء العصر وفقهاؤه، بعد أن واجهوا مقاومة ثابتة ضدّ هؤلاء الدخلاء الذين جاؤوا لإرباك سكينتهم، وكانوا يبحثون عن بدء الطريق الذي يقود إلى الانتشاء، إلى النعيم، نهاية الروح هذه التي تندمج مع الروح القدس"⁶⁹.

ومن الانتظارات التي ترك مشاريع الاحتلال وتهدّد وجوده بشكل مباشر أن "يأتي المؤمنون من كلّ الجهات يستلهمون من عقائدهم، وينصتون إلى نصائحهم. وهكذا، تحت لون من الانبثاق الإلهي تشتدّ هذه القوى الخفية، وتظهر في كلّ الظروف شاملة كلّ عناصر المجتمع الإسلامي، وصولاً إلى توجيه المؤمنين وفرض قدرتهم المطلقة"⁷⁰. فتصبح المواجهة، بذلك، متجاوزة أهل الطريقة إلى كلّ منتمٍ للإسلام.

4. المقوم السياسي للمؤسسة الطرقية.

نشير إلى أنّ السياسة هنا تردّ بمفهومها العامّ، أي التدبير. وقد جاء في لسان العرب: "والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه"⁷¹. ونؤكد أنّ الحضور الطرقيّ لم يخل من وجه سياسيّ وسمّ جملة العلاقات التي كانت لبنة الطريقة شيوخاً ونواباً، مقدّمين ووكلاء، وحتى زمرة المريدين. وكانت هذه العلاقات متعدّدة متنوّعة. رغم ذلك يمكن اختزالها في الصلة بالتنظيمات النظرية لها، والصلة بالاحتلال: بصفة عامّة، والفرنسيّ بصفة خاصّة، ثمّ الصلة بسلطات الترك وممثليها الباي.

1.4. الصلة بالتنظيمات النظرية: التي منها التنظيم المرابطيّ والوهابيّ والإباضيّ ممّا له دور بارز في تأثيث المشهد الحضاريّ الجزائريّ فكراً وعلماً وثقافة. فما من تنظيم من هذه التنظيمات إلّا ويبذل قصارى الجهد لحيازة موضع قدم، ولم لا الهيمنة على غيره من التنظيمات المنافسة له في بيان الانتساب إلى الإسلام الصافي. لذلك "يكافح العلماء والمرابطون، دون جدوى، البعض لاستعادة منزلتهم، والبعض الآخر للاحتفاظ بشهرة قداستهم وتوسيع



امتيازاتهم؛ والوهابية، دون جدوى، تسعى إلى إعادة الإسلام إلى صفائه الأول؛ والإباضية، تطرح بدورها إصلاحاتها الصارمة ونظرياتها الليبرالية⁷².

غير أن ديون وكوبلاني يؤكدان ضعف الطرح غير الصوفي وعجزه، يومئذ، عن إقناع الناس والاستجابة إلى تطلعاتهم. لذلك تبقى البطولة للتصوّف وأربابه وفضاءاته وتعليماته. يقولان: "ويحطّم التصوّف الكلّ ويأخذ الكلّ دون أن يترك، هنا وهناك، سوى جزيرات غير محسوسة عليها يناضل، في حالة يأس، عناصر عاجزة عن ركوب المدّ الهائل الذي يجتاح العالم الإسلامي"⁷³. ولهيمنة التصوّف تلك آثارها في تحوّل الناس عامّة، والأتباع خاصّة إلى مستعبدين فكرا واعتقادا. إذ يبقى الجميع في حيّز النبوة وانتظار المنقذ. وهذا شاهد في الغرض: "لهذا، وتوظيف هذه الفكرة، بوتقة عجيبة فيها يُصهر الفكر الشرقي، استعبد شيوخ الطرق الإسلامية الحشود. لهذا يعيش المسلمون دائما في النبوة والمهدية..."⁷⁴.

إنّ صلة الطرقية بالتنظيمات النظرية لها عامّة لا تخفي صلتها الخاصّة داخل النظام الطرقيّ نفسه. ذلك أنّ أشكالا من الصراع والصدام والتناحر شهدتها بعض الطرق. ولنا أن نذكر ما كان بين القادرية، ممثلة في الأمير عبد القادر الجزائريّ والتيجانية ممثلة في سيدي الحاج عليّ ومحمّد الصغير التيجاني، لا سيّما الحرب والحصار⁷⁵ اللذين شهدهما مقرّ التيجانية في عين ماضي. لقد "حاصر الأمير"⁷⁶ عين ماضي وأخذها في 1839، بعد ثمانية أشهر من الحصار ومن القصف"⁷⁷.

ومن بين أسباب ذلك الضعف الذي مُنبت به التيجانية في مواجهة القادرية ذلك التصدّع الداخليّ الذي أسفر عن انشاقات بين أصحاب عين ماضي وأصحاب تيماسين. لقد "ثُمّنت عين ماضي، بالنسبة إلى الورثة المباشرين لمؤسّس النظام، وكذلك تيماسين، الموجهة من لدن ورثة خلفه الروحيّ. كان عليهم جميعا أن يتشاركوا في انتصار التيجانية، ولكنّ كان لهذا الامتياز المشترك أن يقضي على تجانس إدارة الطريقة ووحدها"⁷⁸.

2.4. الصلة بالاحتلال: بصفة عامّة، والفرنسيّ بصفة خاصّة. وهي صلة ناشئة، إضافة إلى موقف الطريقة، كلّ طريقة تقريبا، من المحتلّ بصفته العدائيّة الغاشمة، عن انشغال هذا المحتلّ وأذنا به هذا النوع من المؤسسات الدينية والتنظيمات الصوفية خوفا من تحركاتها أو طمعا في استمالتها. ف"في إفريقيا، فرنسا وإنقلترا اللتان منذ معاهدة برلين... هما مهتمتان بشكل خاصّ بتتبّع حركة الدعاية الإسلامية الموجهة من لدن الطرق الدينية"⁷⁹. تمثّل الطريقة، إذن، مصدر خطر يفرض على حكومة الاحتلال حذرا شديدا واستعدادا كبيرا، في ما تسمّيها



"مستعمراتها" في إفريقيا عامة، وشمالها خاصة، والجزائر بصفة أخصّ لحدودها المترامية الأطراف مع البلدان الإفريقية. ذلك أنّ "مصير الأعراق السوداء، بالفعل، عملت الطرق، وعلى رأسها الطرق السنوسية، على تثبيته قبل أن تتمكن الحضارة الأوروبية من دخول المناطق التي تسكنها تلك الأعراق"⁸⁰.

يندرج ذلك ضمن ما تشهده إفريقيا يومها من تعزيز الانتشار الإسلامي وتكثيفه وتسريعه لتقوية الوازع الديني والتصدي للغازي وحماية الأرض والعرض. ذلك أنّ "الوطن في عيونهم هو أرض الإسلام، ولحماية هذه الأرض المقدسة التي يهددها الغازي، يجمعون قواهم وذلك بالمناداة بالشعور الديني الذي يوحدهم ويعاضدهم في عقيدتهم غير المترعزة"⁸¹. ينبّه دييون ورفيقه إلى اكتساح الإسلام، انطلاقاً من مشاهدتهما في الجزائر، للخارطة الإفريقية. فيقولان: "إنّ حركة التجديد والدعاية الإسلامية تضاعفت كثيراً السنوات الأخيرة، إلى حدّ أنّه يمكننا القول، جغرافياً، أكثر من ثلثي إفريقيا ينتمي للإسلام"⁸². وفي هذا القول تنبيه إلى دور الطرق في ذلك التصدي لعملية التمدين والتحضير التي يرفع لواءها الاحتلال حيثما حلّ. إنّ "الإسلام المنتقل بالطرق الدينية، يمكن أن يكون خطراً جسيماً بالنسبة إلى مهمة الحضارة المطلوب القيام بها"⁸³.

إنّ نظرة دولة الاحتلال إلى الطرقية لا تتجاوز الاعتبار السياسي الذي يدخل في خانة التهديد. وهو تهديد منشؤه البناء السياسي المحكم لهذه الطرق. فهي، في نظر هذين المستعربين، دول داخل دولة، بل هي مركز التحرك الإسلامي الذي يشكل خطراً ضدّ الوجود الاستعماري وتوغّله في الجزائر، وفي إفريقيا، بصفة عامة. يقول هذان المستعربان: "هذه الدول في دولة، هذه الطرق الدينية، في كلمة واحدة، هي نفسها روح حركة الإسلام الشاملة... لن نجهل خطورة هذه الحركة ومن المهمّ أن نحمي أنفسنا من تحركات أولئك الذين يوجهونها"⁸⁴.

تنهض الطرق الصوفية، إذن، بدور دفاعي من جهة، وهجومي من جهة أخرى. وهو دور يتأسس على تدبير سياسي تقف فيه الطريقة إلى جانب الجهة التي ترى فيه العون لها. "تجد الطرق الدينية نفسها في الصفّ الأول لصدّ الانتشار السريع للحضارة المسيحية. إنّها ترفع لواء الاستقلال، وتعيد ضمّ الروابط المقدسة التي توحد أتباعها؛ وعقائدها الدغمائية حصراً ولدى الصوفية، تتضمّن التعاليم السياسية"⁸⁵. فإذا تضخّمت التعاليم ذات الصبغة السياسية تضاعفت النزعة العدائية وتطوّرت خطط المواجهة: "إنّ وصاياها تشهد تدريجياً التغييرات التي



تتطلبها الوضعية الجديدة؛ المبدآن: حرب متهورة ضدّ المسيحيين في كلّ مكان وفي كلّ الظروف، معارضة ممنهجة ضدّ كلّ تجديد، يمثلان جزءا من مذهب كلّ منها"⁸⁶.

ما يثير حيرة ديبون وكوبلاني، ومن لفّ لقهما، في شأن الطرق، هو تطورها، لا بل سرعته، وتغيّر ملامحها. ذلك أنّ ما يستقرّ في ذهن المحتلّ وأذنايه من صور تتعلّق بالطرقين وسلوكا وعلاقات سريعا ما يذهب لتحلّ محله صور أخرى غير مألوفة. لذلك كانت استعارة صورة الواابل لخاصيّة التطور هذه: "مثل وابل لا أحد يمكنه إيقافه. يقطع الجنديّ الفرنسيّ الفيافي ويتسلّق الجبال بحثا عن العدو غير المرئي"⁸⁷. يساهم وصف هذا الوضع الحربيّ الذي يحاول فيه المحتلّ تعقّب عدوّ لدود خفيّ في تضخيم دور الطرق النطاقيّ ومن ثمّ ضرورة التفكير في استدراجها وتوظيفها. يقول الكاتبان، وهما واقعان بين توصيف الحدث والإحياء بوجوب توظيفه: "ولكن، في الجزائر خاصّة، تطوّر المذاهب الروحية يُلاحظ في سرعة متزايدة دائما؛ إنّهُ وسط أبناء شعوب حملاتنا تحرز الطرق رقيا مستمرا؛ إنّهُ هنا تحوّل، لفائدها، مشاعر الحشد. أمّا في الخارج فلا يحصل المؤمن عن بعد، على غير أصداء للمآثر الحربيّة للروميّ الغازي"⁸⁸. ولكن رغم خطورة الوضع وصعوبة التصديّ لسيل الطرق الجارف ما يزال هذان المستعربان، وهما في تكليف حكومة الاحتلال وخدمتها، يشرّعان للوجود الفرنسيّ بالجزائر. إذ "ما تزال فرنسا تتقدّم، تتقدّم دائما، رغم المقاومة الرهيبة القاتلة الدمويّة اليائسة"⁸⁹.

وتحت عنوان: علاقاتنا مع الشيخيّة والطبيبة والتيجانيّة والقادرية. يقرّ الكاتبان باسترخاء بعض الطرق لصالح الحكومات الاحتلال المنشأة. ثمّ يشفّ خطابهما عن "وضعية بعض الشراكات العدائيّة مقارنة بالجزائر وممالك الدخول في مناطقنا الإفريقيّة النائية"⁹⁰. ومن الذين مثّلوا رموز التصديّ ضدّ التوغّل الاستعماريّ في الجزائر، الأمير محي الدين عبد القادر الجزائريّ (1808-1883) الذي سعى إلى توحيد الكلمة والصفّ إنقاذا للبلاد والعباد. يقول ديبون وكوبلاني: "يريد الأمير عبد القادر، بدوره، بعد أن حاول توحيدهم ضدّ فرنسا المنتصرة (1838)، أن يفرض نبره على سيدي الحاج علي وعلى سي محمّد الصغير، لكنّ جهوده ذهبت سدى مع الطريقة التيجانيّة، رغم نكسات زاويتها الأمّ التي نمت في هيبة"⁹¹. لقد كانت هذه الطريقة متعاونة مع حكومة الاحتلال الفرنسيّ بالجزائر، هذا من جهة، وممتدّة امتدادا كبيرا، وهذا من جهة أخرى. ف"هذه الفترة (1815-1853) مثّلت ذروة شراكة الشيخ التيجانيّ؛ امتدّت فروعه. بعيدا وازدهرت، في المغرب... في السودان الغربيّة... نشر دعاة التيجانيّة تعليم



الزاوية الأمّ في تونس، وفي طرابلس الغرب، وفي مصر، وفي العربيّة السعديّة، وحتىّ في آسيا. دخلوا القارة السوداء وأنشأوا زوايا... بعد أن علّموا عددا كبيرا من الطوارق...⁹².

يمكننا القول إنّ الطريقة التيجانية، خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر كانت ذات اقتدار كبير لم يمنعهما من أن موالة المحتلّ. ف"رغم الانشقاق بين الموجّين الكبيرين للتيجانية، فإنّ خطّ القيادة للمديرين تجاه فرنسا كان دائما خطّ أزمنة الغزو الأولى. في كلّ الظروف، أظهرنا لنا التعلّق والخدمة بإخلاص"⁹³. تکرّرت اعترافات هذين الكاتبين بولاء التيجانية للوجود الفرنسيّ على أرض الجزائر إلى درجة الاستنكاف عن لقاء أعداء فرنسا الذين منهم الأمير عبد القادر الجزائريّ نفسه. لقد "رفض التيجانية رسميا لقاء أكبر أعدائنا. منذ هذه الحقبة التي لا تنسى لا يكفّ التيجانية عن خدمة القضية الفرنسيّة. في 1844 دعموا مسيرة الدوق دومال (d'Aumal) على بسكرة"⁹⁴. هناك قصد من جهة الكاتبين، إلى تثمين ولاء التيجانية لفرنسا، أو فضح سلوكهم ضدّ إخوتهم وطنهم. يقول ديبون وصديقه: "لا يمكننا فعل الأفضل لنقدّم للقارئ فكرة عامّة عن روابط التعاطف التي ربطت دائما التيجانية بحكومتنا...⁹⁵،

3.4. الصلة بالترك والباي: ما التغيير الذي طرأ على العالم خلال القرن التاسع عشر؟ إنّّه وبسبب انقلاب موازين القوى تحرّكت أوروبا باتجاه ضفّة المتوسط الجنوبيّة. "وها هو القرن التاسع عشر يعلن عن نفسه تملؤه العاصفة؛ أوروبا المتحضّرة تطلق هجماتها العملاقة على الشرق المتوحّش؛ من كلّ الجهات، دخلنا العالم الإسلاميّ"⁹⁶. ولما كان كلّ من كوبلاني وديبون فرنسيّين فإنّه ينشغلان أكثر بإفريقيا مرتع الاحتلال الفرنسيّ، أساسا، إلى جانب غزو القارّات الأخرى. ومن ثمّ الإزهاصات الأولى لأفول نجم الإمبراطوريّة العثمانية. ف"القارة الإفريقية، بصفة خاصّة، أصبحت مستمداً قويا بالنسبة إلى اهتمامات القوى المتحضّرة: الإنجليز في الهند ومصر وفي السودان الشرقيّ؛ وروسيا في آسيا الوسطى؛ وفرنسا في الولايات المتوحّشة وإلى حدود تمبكتو العجيبة؛ والنمسا في البوسنا والعربك..."⁹⁷.

ولئن كانت الصلة السياسيّة بين العثمانيين وأوروبا معلنة، إذ "إنّ اتّصال الإمبراطوريّة التركيّة بالعالم المتحضّر والنضالات الداخليّة أثارتها احتياجات جديدة، هزّت العالم الإسلاميّ"⁹⁸، فإنّ الدولة العثمانية وطّدت روابطها ببلدان شمال إفريقيا المهذّدة من الغزو الأوروبيّ دفع بالطرفين، وهذا ما ذهب إليه الكاتبان، إلى التعاون والتعاطي مع الطريقة: يقولان في نظرة زمانية تعود بهما إلى غابر الأزمان الرومانية، وأخرى آنيّة تعرض سلوك: "مع ذلك توقّر لنا



إفريقيا الشمالية حقل تجربة حيث تتعدّد الأمثلة في كلّ مرحلة من التاريخ. ودون الرجوع إلى فرق المرينيين والموحّدين، دون تعداد آلاف المهّمين الذين بدورهم برزوا في القبائل وحاولوا إنهاض الحشود باسم الدين المتّك، نرى حكومة الودج (l'Odjeac) يوميًا في اتّصال مع المجتمعات السريّة التي غالبا تهدّدها في قلاعها وتفرض عليها التعامل معها قوّة بقوّة⁹⁹.

ولمّا كان الباي، بشكل أو بآخر، ممثلاً للوجود التركيّ في الجزائر، كان من الممكن الجمع بينهما في تناول الشان السياسيّ لدى الطريقيّة، بين داخل الجزائر وخارجها الذي لا يعدو أن يكون السلطنة العثمانية التي يعبران عنها، غالبا، بالترك. يذهب الكاتبان إلى أن "في الخارج، تُمسك بقوى الإسلام، أكثر من أربعين نظاما دينيا مقسّما... ليس لهم من مشترك سوى أصل عقائدهم الرجعيّ وكراهيتهم لكلّ ما ليس إسلاميًا. وفوق هذه الدويلات داخل الدولة، وهذه الحكومات الخفية، المنبسطة، مثل رمز للإيمان معوّضا لفكرة الوطن الغائبة"¹⁰⁰.

لقد كانا واعيئين بوجود خيط ناظم لما بدأ في التفكّك والانشقاق والتجزئة، بسبب مشاريع الاحتلال في البلاد الإسلامية. وما هذا الخيط الناظم لما كان منضويا تحت الراية العثمانية سوى فكرة الجامعة الإسلامية. إنّ "هذا التصرّو المبالغ فيه للجامعة الإسلامية المولودة في إسطنبول والمطوّرة في مكّة، يطمح إلى توحيد كلّ الطرق تحت راية سلطان القسطنطينيّة، دفاعا عن الدين، وإعادة بناء الخلافة والنضال ضدّ الغزو الأوروبي"¹⁰¹.

وأما السلطان عبد الحميد فكان هو الآخر يسلك المسلك نفسه، تقريبا، في محاولة إيجاد نقاط قوّة بها يعزّز الجامعة الإسلامية: "ويلتقي عبد الحميد، فعلا، مع كثير من أسلافه في البحث في الطرق، عن نقطة ارتكاز لسيّاسته الإسلامية الشاملة"¹⁰². مثّل تركيا، إذن، يوما، سندا متينا للطريقيّة في نضالها ضدّ الاحتلال وتصديّها لكلّ مشروع إصلاح يدّعيه المحتلّ. "وأقرب منّا، في تركيا، أخيرا، الدعاية نفسها الموجهة تحديدا من الطرق، تمثّل القوّة المعارضة لكلّ محاولة إصلاح"¹⁰³.

لم تخل العلاقة بين بعض الطرق والباي من توتر كانت فيها الغالبة، في الغالب، من نصيب الطرق على حساب الباي وحكومته. لقد "تفرّقت الدرقاويّة، في قطاع وهران، بعد أن ثوّرت القبائل ضدّ قوادر (caïds)¹⁰⁴ الباي حسين. ولكن حين نعتقد فناءهم إلى الأبد، يظهرون من جديد، أقوى وأشرس. لقد تجمّعوا في الظلّ واندفعوا بشعورهم المتزمت وتمكّنوا من الإحاطة بشعوب دفعت بالجرأة حدّ محاصرة وهران"¹⁰⁵. ومن الأمثلة على ذلك التوتّر، كذلك، ما كان من علاقة بين الطرق والترك، بدت، من خلال خطاب ديبون وكوبلاني، توافقيّة



تواصلية بفعل القاسم المشترك بينهما، ألا وهو الجامعة الإسلامية. لكن هناك ما يخالف ذلك كلياً. فقد "أثارت الثروات العظيمة المجموعة في عين ماضي والاستقلالية التي برهن عليها مديرو التيجانية جشع باي وهران، الحسن (1820) ...، اعتداءات غير مجدية"¹⁰⁶. وأياً كانت النتيجة التي آل إليها الصراع بين الباي والتيجانية فإن الذي يعني سلطة الاحتلال هو وجود تصادم بين الباي ممثّل العثمانيين في الجزائر والطرق التي تتحرك بقواعدها في مواكب نضالية ترفع لواء الجهاد ضدّ كلّ معتد يستوي في ذلك الأجنبيّ وغيره ولو كان من ملة الإسلام. يقول الكاتبان: "يعلن التيجانية بدورهم أنّهم محرّرون من كلّ نفوذ زميّ وكانوا يقاومون بكلّ جهدهم في قلعهم عين ماضي. في قطاع قسنطينة، بعد نضال الحنصالية"¹⁰⁷ الصامت ضدّ البايات، تعصّب جديد درقاويّ ثور كلّ القبيلة الصغيرة وظفر بانتصارات مذهلة على الجيش التركي"¹⁰⁸. وهذا تماماً ما كان يصبو إلى تحقيقه ذوو سياسة "فرق تسد".

4. خاتمة:

خلاصات في ثلاث:

أ- استقطبت الطرقية في الجزائر اهتمام المستعربين. فاشتغلوا بها توصيفا وتوظيفا. وكتبوا فيها المصنّفات التي من بينها كتاب ديبون وكوبلاني.
ب- وقّر هذا الكتاب المعتمد في مدوّنة البحث حاجياته من جهات ثلاث هي: الجهة التنظيمية التأسيسية، والجهة العلمية التعليمية والتربوية، والجهة السياسية النضالية، خاصة.

ج- مثّلت جهات الدرس الثلاث مقوّمات حقيقة ينهض عليها المشروع الطرقيّ الذي لم يتخلّص بعد، لا في الكتاب المعتمد في البحث ولا في واقع الحال بالجزائر

استنتاجات في ثلاث:

أ- حاول الكاتبان ديبون وكوبلاني الإمام بما تزعم الطرق التفرد به في مجالات مختلفة تنظيراً وإجراء، لكنهما لم يأتيّا على جملة من الخصائص المائزة لا سيّما المقامات.

ب- قدّم هذا الكتاب مادّة علمية غزيرة غير أنّه ظلّ محكوماً بالإيديولوجيا الاستعمارية التي لا ترى في الآخر سوى خصم لدود عليها إزاحته أو على الأقلّ عولته.

ج- لم يتمكّن هذان المستعربان من التزام مصطلحات بعينها فكثيراً ما وقعاً في الخلط لا سيّما بين الزاوية والطريقة والتصوّف.

توصيات في ثلاث:



- أ- توجيه عناية الباحثين الأكاديميين إلى تناول مدّخرات البلاد الفكرية والعلمية والثقافية، بالدرس لا سيما من زاوية نظر غيرية.
- ب- تكثيف الاشتغال في الأنظمة الطرقية واستخلاص أهم مقوماتها التنظيمية لفهمها والإفادة منها في مشاريع تربوية استشرافية، خاصة.
- ج- تأثيث المحافل العلمية بالمسائل الثقافية الوطنية وتحويل أعمالها إلى قاعدة بيانات تحفظ المادة العلمية وترتجل إلى العالم في عصر الرقميات.
- قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

Xavier, *Les confréries religieuses musulmanes*, Depont. Octave et Coppolani publié sous le patronage de M. Jules Cambon, Alger, A. Jourdan : Imprimeur-Libraire- Éditeur, 4 place du gouvernement, 1897

المراجع:

* المؤلفات:

- مانع بن حماد، الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الإشراف والتخطيط والمراجعة، دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط3، 1418هـ.
- محمد الهادي، الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، (تعريب: محمد الشاوش ومحمد عجينة)، تونس، دار سراس للنشر، تونس، ط3، 1993.
- عبد الرزاق، الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد العال شاهين، القاهرة، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1413هـ/1992م.
- أحمد، مريوش، وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر (د.ط)، 2007.
- أبو الفضل، ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، طبعة جديدة محققة ومشكولة ومنديلة بفهارس، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

المقالات:

- قرفال، نجاة، قرفال، "شخصية الأمير عبد القادر الجزائري في عيون المستعربين"، مجلة تنوير للبحوث الإنسانية والاجتماعية، العدد 11، سبتمبر 2019م، صص 47-73.

¹ Depont. Octave et Coppolani. Xavier, *Les confréries religieuses musulmanes*, publié sous le patronage de M. Jules Cambon, Alger, A. Jourdan : Imprimeur-Libraire- Éditeur, 4 place du gouvernement, 1897 , p. 205.



² لمزيد التعمق والتدقيق في تاريخية النشأة، انظر: مانع بن حماد، الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الإشراف والتخطيط والمراجعة، دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط3، الرياض، 1418هـ، صص 249-261.

³ Depont et Coppelani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. x.

⁴ Ibid, pp. 193.

⁵ Ibid, p. 196.

⁶ Ibid, p. 206.

⁷ Ibid, p. x.

⁸ Ibid, p. xix.

⁹ Ibid, p. xxii.

¹⁰ Idem.

يقع في الهند.¹¹

¹² Depont et Coppelani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. x.

¹³ Idem.

¹⁴ مانع بن حماد، الجهني،، مرجع سابق، ص 256.

¹⁵ Depont et Coppelani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. ix.

¹⁶ Ibid, pp. 193-194.

¹⁷ Idem.

¹⁸ Ibid, p. 194.

¹⁹ Ibid, pp. 193-194.

²⁰ Idem.

²¹ Ibid, p. 194.

²² Ibid, p. 195.

²³ Idem.

²⁴ Idem.

²⁵ Idem.

²⁶ Idem.

²⁷ Idem.

²⁸ Idem.

²⁹ Ibid p. 208.

³⁰ Ibid, p. xii.

³¹ Ibid, p. xi.

³² Ibid, p. 205.

³³ Ibid, p. ix

³⁴ Ibid, p. 208.

³⁵ Ibid, p. 205.

³⁶ الضمير يعود على السيد الحاكم.

³⁷ Ibid, p. 207.

³⁸ Ibid, p. 209.

³⁹ Idem.



⁴⁰ Ibid, p. 206.

⁴¹ Ibid, p. 209.

⁴² Ibid, p. 225.

⁴³ Ibid, p. 227.

⁴⁴ يطلق هذا المستعربان على المؤمنين اسم (les fidèles) وغير المؤمنين (les infidèles).

⁴⁵ Depont et Coppelani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. 207.

⁴⁶ Idem.

⁴⁷ Ibid, p. 231.

⁴⁸ Ibid, p. 208.

⁴⁹ Idem.

⁵⁰ Ibid, p. 205.

⁵¹ Ibid, p. ix

⁵² Ibid, p. 205.

⁵³ Ibid, p. 208.

⁵⁴ Ibid, p. 149.

⁵⁵ انظر: عبد الرزاق، الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد العال شاهين،

ط1، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1413هـ/1992م، مثلاً (الاتحاد ص49، الاتصال ص50، الهوى ص72، الوجود ص74، الولاية ص79، الطريقة ص85، المقام ص107، السالك ص119، القرب ص161، الشهود ص171، خرقة التصوف ص178، ... الخ).

⁵⁶ Ibid, p. xi.

⁵⁷ Ibid, p. x.

⁵⁸ Ibid, p. xxi.

⁵⁹ Ibid, p. 326.

⁶⁰ Ibid, p. 330.

⁶¹ Ibid, p. 420.

⁶² Ibid, pp. 420-421.

⁶³ Idem.

⁶⁴ Ibid, p. 421.

⁶⁵ Ibid, p. 153.

⁶⁶ Idem.

⁶⁷ Ibid, p. 152.

⁶⁸ Ibid, p. 177.

⁶⁹ Ibid, p. 152.

⁷⁰ Ibid, p. 231.

⁷¹ أبو الفضل، ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، طبعة جديدة محققة

ومشكولة ومذيّلة بفهارس، دار المعارف، القاهرة، دت ج39، صص2149-2150.

⁷² Depont et Coppelani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. xix.

⁷³ Ibid, pp. xix- xx.

⁷⁴ Ibid, p. xx.



⁷⁵ وهو حصار شغل حيزًا مهمًا في الأدبيات الاستعرايية. من ذلك: ما كتبه روش، ليون (Roches, Léon) (1809-1900)، اثنان وثلاثون عاما في الإسلام (1844-1834).

Roches, Léon, *Dix ans à travers l'Islam, 1834-1844* (Nouvelle édition), préface et épilogue par E. Carraby, Paris, Imprimerie Académique Dibier, 1904.

وتروميلي، كورناي (Trumelet, Corneille) (1892-1817)، تاريخ انتفاضة أولاد سيدي الشيخ، مكتبة جوردان، الجزائر.

[*Histoire de l'insurrection des Oulad-Sidi-Ech-Chikh \(sud-algérien\) de 1864 à 1880, Alger, Adolphe Jordan, 1884.*](#)

⁷⁶ انظر لمزيد التوسع: نجاة، قرفال. "شخصية الأمير عبد القادر الجزائري في عيون المستعربين"، مجلة تنوير للبحوث الإنسانية والاجتماعية، العدد 11، سبتمبر 2019م، ص 60.

⁷⁷ Depont et Coppelani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. 424(note2).

⁷⁸ Ibid, p. 421.

⁷⁹ Ibid, p. xiii.

⁸⁰ Idem.

⁸¹ Ibid, p. 176.

⁸² Ibid, p. xiv.

⁸³ Ibid, p. xiv.

⁸⁴ Ibid, p. xv.

⁸⁵ Ibid, p. 176.

⁸⁶ Idem.

⁸⁷ Ibid, p. 177.

⁸⁸ Idem.

⁸⁹ Ibid, p. 178.

⁹⁰ Ibid, p. 257.

⁹¹ Ibid, p. 421.

⁹² Idem.

⁹³ Ibid, p. 426.

⁹⁴ Ibid, p. 429.

⁹⁵ Ibid, p. 426.

⁹⁶ Ibid, p. 176.

⁹⁷ Idem.

⁹⁸ Idem.

⁹⁹ Depont et Coppelani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. 258.

¹⁰⁰ Ibid, p. 280.

¹⁰¹ Idem.

¹⁰² Ibid, p. xiv.

¹⁰³ Idem.



¹⁰⁴ تنطق بتثليث القاف، مفرداها "الفايد"، رتبة وظيفية كان يسعى بها الوالي. "ويتمتع بنفوذ محدود جدًا: جمع الضرائب والمحافظة على الأمن". انظر: محمد الهادي، الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، (تعريب: محمد الشاوش ومحمد عجيبة)، دار سراس للنشر، ط 3، تونس، 1993، ص 55.

¹⁰⁵ Depont et Coppolani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. 258.

¹⁰⁶ Ibid, p. 424.

¹⁰⁷ من الطرق الصوفية المنحدرة من الشاذلية. لمزيد التعمق انظر: أحمد، مريوش، وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 108 وما يليها.

¹⁰⁸ Depont et Coppolani, *Les confréries religieuses musulmanes*, op. cit, p. 258.